

عدى بن زيد العبادى؛ شاعر الحكمة فى الجاهلية

نادر نظام طهرانى*

الملخص

عاش عدى بن زيد العبادى فى بلاط كسرى أبرويز، والحيرة فى عهد النعمان، وكان له فى حياته جانبان: فقد عاش حياة لهو، وعبث، وعاقر الخمرة؛ كما كان سياسيا، وأديبا شاعرا، اشتهر بخمرياته، وحكمه. وبلغ مكانة سامية فى البلاطين، إلا أن مؤامرات الحساد، والأعداء أدت إلى الإيقاع به عند النعمان الذى حبسه ثم قتله، حيث ورد ذكر ذلك فى كثير من المصادر، كالأغاني، ومعجم الأدباء، والجمهرة، والشعر والشعراء؛ ويعتبر من الشعراء الذين يمتازون بالرفقة، رغم أنه كان فى العصر الجاهلى. وله قصيدة مستقلة فى الحكمة تعتبر من عيون الشعر.

الكلمات الدليلية: عدى، الخمرة، الحكمة، كسرى، النعمان.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى جيرفت.

المقدمة

هو عدى بن زيد بن حمّاز، صل نسبه إلى امرئ القيس، وينتهي بنزار. (الأصفهاني، ١٩٥٥م، ج ٢: ٣٤) وهو نصراني كأهله، وكان يعرفون بالعبّاد، ومنه جاء لقبه العبادي، ويرجع أصله إلى بني تميم من قبائل اليمن التي نزحت شمالاً، فاستوطنت اليمامة، ويذكر أبو العلاء المعري في رسالة الغفران، استعمال عدى بعض لغات اليمن حين حديثه لابن القارح قائلاً: «يا مكبور، لقد رزقت ما يكبُّ أن يشغلك عن القريض». ويفسر أبو العلاء كلمتي (مكبور) و(يكب) بـ(مجبور) و(يجب). (المعري، ١٩٥٠: ٨٨)

استوطنت هذه القبيلة اليمامة مدة من الزمن ثم رحل أحد أفرادها أيوب إلى الحيرة لأنه أصاب دماً، وخاف على نفسه من الانتقام، والتجأ هناك إلى أحد أنسابه من بني الحارث بن كعب، وكان لهذا كما يذكر الطبري في تاريخه مكانة مرموقة بين قومه، ولدى الفرس وأكاسرتهم. ويتصل أيوب في حياته بملوك الحيرة، وينال منهم أعطيات كبيرة، ترفد زيدا ابنه بعد وفاته، «ثم إن زيد بن أيوب، نكح امرأة من آل قلام، فولدت له حمّازاً». (الأصفهاني، ١٩٥٥م، ج ٢: ٣٥) جد شاعرنا عدى، ويذكر الأغاني أيضاً أن حمّازاً برع في الكتابة، فخرج من أكتب الناس، وطُلب حتى صار كاتب الملك النعمان الأكبر. (المصدر نفسه: ٣٧)

تزوج حمّاز امرأة من طيء، فأنجبت له ابناً، سمّاه زيدا، باسم أبيه، وكان له صديق من عظماء الدهاقين، يدعى (فروخ ماهان) فلما حضرته الوفاة أوصى بابنه إليه، فربّاه مع ولده، وكان قد حذق الكتابة بالعربية كأبيه ومهر فيها، وتعلم لدى الدهقان الفارسية، إلى جانبها، ولفرط ذكائه أشار الدهقان على كسرى أن يجعل زيدا على البريد في حوائجه، ولم تكن تسند هذه الوظيفة إلا إلى أولاد المرابذة من الفرس.

ونكح زيد نعمة بنت ثعلبة العدوية، فولدت له عدياً في الربع الثاني من القرن السادس للميلاد، وارتفعت مكانة زيد الاجتماعية لقربه من كسرى وملك الحيرة المنذر. وتعلم عدى العربية وكتابتها، فأتقنها ومن ثم زامل ابناً للدهقان يدعى شاهان مرد، على مقاعد كتاب الفارسية، فخرج أفصح الناس بالعربية والفارسية على السواء. ثم تعلّم

الرمى، وألعاب الفرس على الخيل بالصوالجة. وفى هذه الآونة قال الشعر، فعلا نجمه، وبدأت شخصيته بالظهور، خاصة وأنه كان يمتاز بحسن الوجه، وانتصاب القامة، والذكاء الحاد.

وشاءت المقادير لهذا الفتى أن يتصل بكسرى أبرويز، فيكتب له بالعربية فى ديوانه، فارتفع شأنه فى المدائن، حتى أحمل ذكر أبيه، فكان يقوم له جميع من فى مجلس المنذر إذا دخل، ولا يقعدون حتى يقعد، ولم يشتد عدى فى استغلال هذه المكانة، فقد كان همه المرح واللهو، يستأذن كسرى، فيتغيب الشهر والشهرين فى الحيرة يقضيها بالصيد، والقنص، والتمتع باللذائذ.

وحدث أن أرسل كسرى عديا بهدية إلى ملك الروم، فلما أتاه أكرمه، وأرسله إلى عماله ليروه سعة أرضه وعظيم ملكه. وحينما جاء دمشق قال فيها الشعر، فكان مما قاله فى الشام، وهى أول شعر له:

رُبَّ دارٍ بأسفلِ الجَزَعِ من دو مةً أشهى إلى من جَبِرُنِ
ونَدَامَى لا يفرحون بما نا لوا ولا يرهبونَ صَرفَ المَنونِ
قد سَقِيْتُ الشمولَ فى دارِ بشرٍ قهوةً مُرَّةً بماءِ سخينِ

(المصدر نفسه: ٣٧)

لقد كان لعائلة عدى القدرة للبزوغ فى المجتمع ونيل الحكم، ولكنهم كانوا يبتعدون عنه، ولم يخالف فى ذلك إلا زيد، ويذكر الأغاني أنه ملك قبل المنذر. (المصدر نفسه: ٣٨) وكان المنذر يجله، ويقر بنعمته عليه، إلا أن عديا عاش حياة اجتماعية، تتقلب بين ملك وسياسة، وبين قصف ولهو، يعيش تارة بجانب كسرى، وينقل تارة أخرى ليلهو مع النعمان فى بلاطه الغارق فى اللهو، ومجالس الخمر. وهو الملك الذى أمر شاعره النابغة الذبياني، بوصف زوجته المتجرّدة وصفا سافرا دالا على ما فى جوهره من تهتك، ومجون، وهو سكران كما زوج أخته لعدى، وهو سكران أيضا.

لقد كان عدى رأس الشاربيين وسبق النعمان فى ذلك، يقول طه حسين فى حديث الأربعاء: «لم يرو الرواة له كثيرا فى الخمر، ولكن ما يروى عنه أن كان بها كلفا وفى

وصفها مجيدا.» (حسين، لاتا، ج ٢: ٧٣) ثم يذكر أن أبياته في الخمر كانت تغنى للوليد بن زيد، فيستعذبها ويشرب عليها حتى يسكر، والأبيات هي:

ودعوا بالصبوح فجرا فجاءت	قينة في يمينها إيريقي
قدّمته على عقار كعين الديك	صفى سلافها الراووق
مزة قبل مزجها فإذا ما	مُرَجَّتْ لَذَّ طعمها من يذوق
وطفا فوقها فقايع كاليا	قوت حُمُرٍ يزينها التصفيق
ثم كان المزاج ماءً سحاب	لاصدى آجن ولا مطروق

فعدى شاعر خمري في الدرجة الأولى، والأستاذ الأول للشعراء الذين أتوا بعده، كالوليد بن يزيد، ووالبة بن حباب، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، والوواء الدمشقي، وابن الساعاتي، وغيرهم.

وقد أحبّ الخمر حبا، جعله يعيش في دنائها، لا يستفيق، وتتقل من أجلها من دير إلى دير، يعبّ من سلافها دون أن يرتوى، ومما قال في إحدى زيارته لأحد الأديرة:

نادمت في الدير بنى علقما	مشمولة تحسبها عندما
كأن ريح المسك في كأسها	إذا مزجناها بماء السما
من سرّه العيش ولذاته	فليجعل الراح له سلما
علقم ما بالك لم تأتتا	أما اشتهيت اليوم أن تنعما

وقد ورد في الشعر والشعراء: «إننا نجد في عجز البيت الأخير، طابع التوليد لما نرى فيه من الصنعة بجعل الراح سلما.» (ابن قتيبة، ١٣٢٢ق، ج ٢: ١٨٢)

وكان ابن قتيبة قد اعتبره من الذين سكنوا الحيرة، ودخل الأرياف، فنقل لسانه، واحتُمِلَ عنه شيء كثير جدا، ويقول: «وعلماؤنا لا يرون شعره حجة.» (المصدر نفسه: ٣٤)

وعدى بن زيد لم يغرق في بحر الخمر فقط، بل إنه غرق في بحر السياسة وما فيها من خديعة ومكر، والتي أدت به إلى القيد والسجن، ففاضت نفسه بالحكمة المقتبسة

من حوادث الأيام، ويقال إنه تنسك فى أواخر حياته حتى أن طه حسين شبهه بأبى العتاهية، ولكن يحق لنا أن نقف هنا قليلا، فعدىّ يختلف اختلافا كبيرا عن أبى العتاهية، ويقرب كثيرا من أبى نواس.

فحياة عدىّ ذات شقين، جمعت بين ثناياها الدينا، والآخرة؛ دنيا طويلة، نالت كل حيويته ونشاطه وشبابه، وأخرى تذكرها وهو على عتبة الموت. وكان للحوادث أثر فى ذلك، ومنها قصة حبسه من قبل النعمان. فقد ذكر صاحب الأغاني أن مؤامرة، حاكها عدى بن مرينا، عدو عدى بن زيد، ومنافسه عند النعمان، أودت به إلى السجن، رغم ما كان بين الملك وشاعرنا من صداقة وألفة، وذلك أن عديا صنع ذات يوم طعاما للنعمان، وسأله أن يركب إليه، ويتغدى عنده هو وأصحابه، فركب النعمان إليه، فاعترضه عدى بن مرينا، واحتبسه حتى تغدى عنده وشرب حتى ثمل، ثم ركب إلى عدى، فرأى فى وجهه الكراهة، فقام فركب ورجع إلى قصره، فقال عدى فى ذلك:

أَحْسَبْتَ مَجْلِسَنَا وَحَسَنَ حَدِيثِنَا يُوْدَى بِمَالِكَ
فَالْمَالِ وَالْأَهْلُونَ مَصْرَ عَةً لِأَمْرِكَ أَوْ نِكَالِكَ
مَا تَفْعَلُنْ فِينَا فَأَمْ رُكَّ فِى يَمِينِكَ أَوْ شِمَالِكَ

قال: وأرسل النعمان ذات يوم إلى عدى بن زيد، فأبى أن يأتيه، ثم طلبه ثانية فأبى، وكان النعمان قد شرب، فغضب وأمر به فسحب من منزله حتى انتهى به إليه فحبسه، ولجّ فى حبسه، وعدى يرسل إليه بالشعر ويكثر من الحكم، فكان أول ما قاله:

لَيْتَ شِعْرِي عَنِ الْهَمَامِ وَيَأْتِي- كَ بِخُبْرِ الْأَنْبَاءِ عَطْفُ السُّؤَالِ
أَيْنَ عَنَّا إِخْطَارُنَا الْمَالَ وَالْأَنْفُ- سَ إِذْ نَاهَدُوا لِيَوْمِ الْمِحَالِ
وَنُضَالِي فِي جَنْبِكَ النَّاسَ يَرْمُو- نِ وَأَرْمِي وَكُنْنَا غَيْرُ آلِي
فَأُصِيبُ الَّذِي تُرِيدُ بِلَا غِشٍّ- وَأُرْبِي عَلَيْهِمْ وَأُوَالِي

(الأصفهاني، ١٩٥٥م، ج ٢: ٤٣)

وقال أيضا:

أَبْلَغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مَا لُكَا
أَنْتَى قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي

لو بغير الماءِ حَلَقِي شَرِقُ
ليتَ شعري عن دَخِيلٍ يفتري
قاعداً يكرُبُ نفسى بئُها
كنتُ كالغَصانِ بالماءِ اعتصاري
حيثما أدركَ ليلي ونهاري
وحرماً كان سِجْنِي واحتصاري

(المصدر نفسه: ٤٥)

فلما طال سجن عدى كتب إلى أخيه أبي، وهو مع كسرى:

أَبْلِغْ أَيْباً عَلَى نَأْيِهِ
بِأَنَّ أَخَاكَ شَقِيقَ الْفُؤَا
لَدَى مَلِكٍ مُوثِقٌ فِي الْحَدِيدِ
وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَرْءَ مَا قَدْ عَلِمَ
دِ كُنْتَ بِهِ وَائْتَقاً مَا سَلِمَ
سِدِ إِمَّا بِحَقٍّ وَإِمَّا ظُلْمَ

فكلم أبي كسرى في أمره، فأمر كسرى النعمان بإطلاقه، ولما أتى الرسول إلى الحيرة، زين بعض أعداء عدى النعمان بقتله، فأرسل إليه من قتله في السجن، وذلك في العشر الأخير من القرن السادس الميلادي، وأكرم النعمان الرسول، ورشاه ليسكت لسانه، ويعود إلى كسرى لينبئه بأن عدياً، مات في السجن قبل وصوله.

وهكذا انتهت حياة عدى الشاعر المتشعب الجوانب. وإذا كان قد مات، فقد استطاع ابنه زيد الذي حل محله عند كسرى، أن يكيده له عنده، حتى تمكن منه وانتقم لأبيه، وانتهت حياة النعمان قتلاً عند كسرى، وانطوت بموته أسرة النعمان، وحكمها. وهنا لا بد من القول إن لعدى قصيدة طويلة في الحكمة، تبلغ حوالي اثنين وأربعين بيتاً، تدعى المجهرة، عدها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب من المجهرات، مطلعها:

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أُمَّ مَعْبِدِ
نَعَمْ وَرَمَاكَ الشُّوقُ قَبْلَ التَّجَلُّدِ

ويقول فيها:

كفى زاجراً للمرء أيامُ دهره
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
تروح له بالواعظات وتغتدى
فكل قرين بالمقارن يقتدى

(شيخو، ١٩٩٥م، ج ١: ٢٥١-٢٥٢)

النتيجة

رغم ما قيل عن عدى بن زيد من آراء، فإنه يعتبر شاعراً، كأنه عاش فى غير عصره؛ فالرقة التى تبدو فى أشعاره، لانجدها إلا فى العصر الحاضر. وإذا كان قد أضيف إليه الكثير، كما يقول ابن قتيبة، إلا أن ما نشق بأنه له يعتبر من الشعر الجيد ولاسيما جمهرته التى لم يسبق إلى مثلها، وتعتبر فريدة فى العصر الجاهلى، كما تطلعنا حتى مدى تأثره بالحكمة الفارسية، والأدب الفارسى.

المصادر والمراجع

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم. ١٣٢٢ق. *الشعر والشعراء*. بيروت: محمد أمين الخانجى.
الأصفهاني، أبو الفرج على بن الحسين. ١٩٥٥م. *الأغانى*. المجلد الثانى. بيروت: منشورات دار الفكر.
حسين، طه. لاتا. *حديث الأربعاء*. مصر: نشر دار المعارف.
شيخو، الأب لويس. ١٩٩٥م. *المجانى الحديثة*. جمع عدد من الأساتذة. بيروت: المطبعة الكاثوليكية.
شيخو، الأب لويس. لاتا. *شعراء النصرانية*. الجزء الأول. لاتا.
المعرى، أبو العلاء أحمد بن عبدالله. ١٩٥٠م. *رسالة الغفران*. تحقيق وشرح بنت الشاطىء. مصر: نشر دار المعارف.